كل شئ على ما يرام

بقلم
فخري قعوار

طال بهم الصمت ، وامتدت فترة الانتظار للحظة الحاسمة عدة ايام ، وقد شعر ياسين ابو زينه بالسأم يتسرب الى نفسه ، والقلق يستبد به ، وازاء هذا كله ، كان الشاويش فتحي السمعاوي يقول بهدوئه المعتاد :

ـ ماذا أفعل لكم .. الى ان تأتينا الأوامر بتقدم .

ونحت ابو زينه عن مكان يمكنه الجلوس فيه ، فالقى بجسمه على الارض بلباسه الفيتيك ، ووضع كيس « العشاء » والبندقية أمامه ، ووضع راسه على حجر صغير هناك ، وراح يرقب زملاءه الجنود لقد اجتاحهم السأم والتطلع اللظمة الحمراء ، فراحوا يمازحون جنديا بدينا ، مترهل الجسم ، مبذلق الكرش ، عيناه صغيرتين تكادان ان تضيعا في ثنايا وجهه وكانه مصاب بورم مخيف ، كانوا يلقبونه « بالبيضة » ، ولا ينادونه الا بهذا الاسم وقد كان يبدو عليه الرضا عن ذلك ، رضا من قبيل المجاملة أو التسليم بالامر الواقع ، المهم انه كان يبدو عليه الانشراح لكل ما يوجه اليه من القاب وكذلك البيضة ، وقد كانوا يتقصون عنهم غبار السأم ايضا ، فيرددون معا أغنية عبد الوهاب القديمة « كلما رحب العمر » بتحويل بعض كلماتها الى الغاط بدينه .

وعلى كل حال فقد كانوا مبعث تسلية ولهو في بعض الاحيان ، ولم يكن ليجرؤ أحد منهم أن يتحدث الى أبو زينه مازحا او متهكما ، فقد اشعرهم الهاد المزاج ، وانه رجل مسؤل من قضايا كثيرة خلفها وراءه في البيت ، وهنا تذكر ابنه سليمان ، فتمتم وهو يصرف بانامله :

ـ ملعون أبوك .. دائحتك الوطنية تستاهل ..

فهو لم يكن يعلم لماذا يحشر ابنه انفه في أمور ليست من شأنه .. وكثيرا ما قال له ان السياسة لها اصحابها .. ورجالها الذين يفهمون فيها ، ولا يعنيه منها شيء ، وكل ما عليه ان ياكل ويشرب ويذهب الى المدرسة ، ماذا يريد ما دام يجد من يصرف عليه ، ويكون مسئولا عن ملبسه ومشربه وماكله وجميع حاجياته ؟ ثم ماالذي يدفعه ليعرض حياته للخطر ، مادام هناك من كلفتهم « الدولة » بالدفاع عنه ؟ .. ولمع خاطر في وجه أبو زينه الحليق ، عندما حرك فكيه غيظا وحنقا على ابنه .

ـ خلاص .. قلت الولد من اليد .

لاشك ان نهايته ألم .. لاحول ولا قوة الا بالله .

ـ ملعون أبوك على أمك ..

وخيل اليه أن سليمان يهرا من كل افكاره ، ولا شك أنه سيقول له كعادته ، انه يحمل عقلا صدئا ، وهو يستغرب من أين يجيء ابنه باندفاعه وحماقاته ، ولا يدري من أين يأتي بعدم اهتمامه للموت والدماء ، فاذا ما حذره من خطر ما يحيق به ، يجيب :

ـ طظ .. الهدف قبل كل شيء .

ماذا ، أنعمته الاهداف ؟ أأفاده الكلام الفارغ والجنون ؟ .. لا ، لم يستفد الا انه كاد يموت قبل ثلاثة اسابيع ، عند مجاهاته رصاصة من بندقية احد الجنود ذوي الوجوه الحمراء ، أصابته في كتفه اليمنى . ولولا أن «الدولة» انقذته .. لانتهى كل شيء ، كل شيء ، ومع هذا فاغلب ظنه أنه لن يقتنع بصحة افكاره وسيظل مصمما في حماقته وتهوره الى .. الى ما شاء الله .

وانتبه أبو ريشة الى الجنود وهم يحيطون بالرجل البدين ، ويرددون كلمة « السمسة » بمصاحبة كف ايقاعي ، وكان الرجل يصيح بهم ان يتركوه ليؤدي صلاة المغرب ، الا انه لم يفلح في اسكاتهم حتى أبعدهم عنه الشاويش سمعاوي ، فاتخذ له مكانا قصيا عنهم ، شمال الخندق بأمتار ، تحت شجيرة بلوط نصفها محتضر والنصف الآخر متيبس ، وراح يصلي .

وتناهى الى اذني أبو ريشة دوي طائرة قادمة صوبهم ، كما تناهى الصوت الى آذان الجميع فقال الشاويش :

ـ كل واحد مكانه .

وعلى الفور ، حمل كل جندي عدته ، واندفع راكضا داخل الخندق . وعندما كان أبو ريشة مسندا على بطنه ، متكئا على ساعديه وهو يمسك بندقيته ، لمح من تحت حافة خوذته الجندي البدين ما زال يبحث عن حقيبته وبندقيته بطريقة تدعو للضحك ، في حين أن الطائرة دارت حول الخندق دورتين ، وهي غير مرتفعة كثيرا عن الارض ، ثم عادت من نفس الاتجاه الذي أتت منه . وهنا قال السمعاوي انهم يستطيعون الخروج ، على أن يظل كل واحد على أهبة الاستعداد والتهيؤ لأن هذه الطائرة ، طائرة استكشافية للعدو وصاح الجندي البدين :

ـ الله يخرب بيتك .. حرمت بيتنا .

وقال احد الجنود :

ـ حمار طول عمرك .

وقال آخر .. مؤكد انهم عرفوا ..

وهنا غمغم الرجل ، بانفاس مبهورة ، والعرق يتصبب من كل مسامات وجهه :

ـ والله نسيت مكان البارودة والحقيبة ياسيدي .

فقال الشاويش بعصبية ظاهرة .. خرج بها عن هدوئه المعهود :

ـ امش .. امش .. يلعن كل الدواب لأجلك .

وخيم عليهم صمت ثقيل لزج ، ولمعت في عيون الجميع لمعات كئيبة حرساء ، وعلت وجوههم مسحة رمادية توحي بالشؤم وخيبة الأمل ، واحسوا بالنهاية والفشل ، فاتخذ كل واحد منهم مكانا له ، وجلس اليه ، أما السمعاوي فقد كانت تقرأ على وجهه ملامح من يريد عمل

شيء ، ولكن ثمة قيودا تمنعه ، ولمح أبو ريشه الجندي البدين يكفكف دمعتين انزلقتا على خديه ، فتقدم منه ، وشجعه بعض كلمات ، وحاول أن يجعله يقابل المعركة المرتقبة بجراة وقوة ، وعدم اهتمام للمصير الذي يترتب على ذلك ، لكن الرجل أجابه بصوت مرتجف راعش

انا خائف على ابني فارس ، علمي به يريد التطوع للحرب و ...

وجاست من أبو ريشه نظرة الى غربي الخندق ، فراى سيارة «جيب» قادمة نحوها تثير سحابا من الغبار ، تسير على موازاة قرص الشمس ، الذي يعانق الافق ويوشك ان يغوب فيه ، وعرف أن «ضابط الفتة» فيها في مهمة ما ، وظل يرقب السيارة حتى وصلت ، وهبط منها الضابط ، كان طويل القامة ، أنيق المظهر مع انه يلبس «الميدك» ايضا ، له شارب كث ، أسود الحاجبين عاقد ما بينهما ، وراح يرمق بعينين سوداوين حادتين وكانهما عينا عقاب ، وهو ممسك بعصا قصيرة سوداء عطيب نهايتاها بقطعتين من الفضة الكابية وهم يؤدون له التحية ، وتقدم منه الشاويش وأدى التحية أيضا ، ثم قال له عن أمر الطائرة التي أتت قبل قليل ، فهز رأسه دون أن يجيب بحرف واحد ، بطريقة من يفهم الامور بأسرع مما يجب ، ثم أدار وجهه نحو السائق وقال له بصوت نحن جميل

ـ ورع البريد يامحمد .

وانشدت العيون الى شخص الرجل وهو يقرأ اسماء أصحاب الرسائل ، ولم يكن أحد منهم يعي اسما غير اسمه ، ويتصور كيف سيبتلعط به محمد بعد قليل ، كان صوته كرعيق مجموعة من العثران اتعقب على أداء كلمات متماثلة ، وشارباه اتخذا شكل مربع ، فكانا كطل لاسمه المعروف ، ورعق باسم ابو ريشه ، مصيبا بعدها كلمة «برقية» ، وكان آذ ذاك صوت طائرة سريعة في مسارها ، يصل الى الآذان فالتقط الرجل الورقة من يد محمد ، ولم يتمكن من فتحها ، لان أوامر الضابط جاءت بأن يلجا كل الى مكمنه ، فامسك الورقة والبندقية بيد واحدة ، وراح يركض نحو الخندق ، وهو يدمدم

ـ من سليمان ... من سليمان

وارتمى على بطنه ، كما فعل الجميع ، وانت الطائرة تصب حممها على مكان الاستحكام ، فاصيبت شجرة البلوط ، وانكسر بعضها المسن ، وهنا همس الضابط بصوت قصد منه اسماع الجميع ان جيش العدو لابد متقدم ، وكفت الطائرة عن القاء قذائفها ، وعادت من حيث أتت ، في حين تولى قيادة المعركة الجيش المشاة ، فراحوا يضربون الخندق بالقنابل اليدوية ، كما يردون الطلقات النارية الصادرة منه

بعد نصف ساعة من بدء القتال ، كان الصمت والكآبة يخيمان على ارض المعركة وانعكس الغدر تلهث من كل الجهات ... وشجرة بلوط يعيش بعضها المحتضر ، وسيارة «جيب» مصابة بكل عاهة ... تقف بصماء وانشداه ، وورقة ممزقة ، كتب على حبر صغير منها ... كل شيء على ما يرام ...